

جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية  
Naif Arab University For Security Sciences



# الموقع الاستراتيجي للعالم العربي وتأثيرها في الملاحه العربية والدولية

الدكتور رشاد محيي الدين الامام

الرياض

1410 هـ - 1990 م

# الموقع الاستراتيجي للعالم العربي وتأثيره في الملاحه العربية والدولية

الدكتور رشاد محيي الدين الامام(\*)

## أولاً: الجهاد الاسلامي في البحر

في البداية يمكننا تقسيم المصادر التي تصدت الى بحث هذا الموضوع الهام الى ثلاثة أقسام:

أولاً: المصادر «النصرانية الأوربية»: وهي التي لا تنسب الى العرب والمسلمين الا كل الشرور والسيئات والجشع والتعصب ضد المسيحيين، ومعظم مصادر هذا النشاط البحري ترجع الى كتابات ومراسلات ومذكرات هذا القسم من المؤلفين والكتّاب وهم الذين غذوا الغربيين بخيالات وتصورات بشعة مترعة بالكراهية للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط بشقيه الشرقي والغربي وكذلك البحر الأحمر والخليج العربي.

هذا النوع من المصادر - خاصة الأصلية منها - لا تتورع اطلاقاً في وصف مجاهدي البحر المسلمين بالاعتداء والخطف والاكراه على تغيير الديانة، ويصورونهم في صورة المتسلطين المعتدين، أما القوى

---

(\*) أستاذ التاريخ العربي الحديث. كلية الآداب والعلوم الانسانية. الجامعة التونسية تونس.

المسيحية وقرآصنتها فهي حسب دعواهم المغلوبة على أمرها، رجالها أبرياء وصناديد، ومن هؤلاء المؤلفين نخص بالذكر منهم فولتير Voltaire وروسيني Rossini وتيولي Teoli.

ثانياً: الكتاب الأدباء والفلاسفة الغربيون الذين هم أقل تعصباً للشعوب الأجنبية عنهم وعن حضاراتهم، وهؤلاء يحاولون تبرير تصرفات غيرهم من الشعوب والأقوام، بدون تعصب ولا خلفيات مسبقة مبدئياً، ومن أمثلة هؤلاء بيسونال Peyssonnel وديفونتان Desfontaines<sup>(١)</sup> وكذلك الأب بواري Liobbve Poiret<sup>(٢)</sup> الذي يرى في سكان شمال أفريقيا - المنطقة الوحيدة التي زارها من كامل البلاد العربية - صفاء الخلق والخلق عكس ما عليه البلاد الأوربية آنثذ، وهؤلاء الكتاب يبررون ويحللون أسباب وعوامل تصرفات أولئك المواطنين المسلمين في جهادهم ضد القوى البحرية النصرانية المختلفة، بل يرونها ردود فعل شرعية ضد تسلط الأوربيين وأحقادهم واستغلالهم للمصالح العربية في كل البلاد العربية الاسلامية.

ومن هؤلاء أيضاً الأب رينال L'abbé Raynal<sup>(٣)</sup> الذي يصف العرب والمسلمين بالنشاط والجد والهمة، بل النظام والانضباط والحكمة.

- 
- 1 - La Malle (de), D. Peyssonnel et Desfontaines, Voyages dans les régences de Tunis et d' Alger 2 vols. Paris Librairie de Gide, 1838.
  - 2 - L' abbé Poiret Voyage en Berbarie Paris Née de la Rochelle 1789.
  - 3 - Emerit M. Un Mémoire inédit de l'abbé Raynal sur la Tunisie au xviiie s. Revue Tunisienne No 3 - 4. 1948. PP: 131 - 183.

ثالثاً: الاتجاه السياسي في كتابات المؤلفين الغربيين وقد ركز هؤلاء على فكرة الاحتلال الاقتصادي للبلاد العربية، ومن هؤلاء الرحالة البريطاني مجيل Mac Cill، أو احتلال الأراضي والبلاد مثل باديا Badia وبانانتي Pananti وغيرهما.

وقد بنى هؤلاء أفكارهم على المعلومات المتوفرة على البلاد العربية البحرية وسواحلها من خلال أوصاف وتسجيلات ورسوم رحالة سابقين مثل فرانك L. Frank<sup>(1)</sup> وبعد احتلال القوى الغربية الاستعمارية لأقطار عربية مختلفة في أماكن جغرافية متفرقة مثل عدن والجزائر، وازدادت معرفة هؤلاء بصفة مركزية جداً بمعظم أجزاء العالم العربي ومراكزه الاستراتيجية الهامة تجارياً وعسكرياً.

ولا يفوتنا التأكيد هنا من جديد على أن جميع أنواع هذه المصادر والمراجع الغربية مهما كان مؤلفوها هي محل شك في صدقها فالواجب أن نقرأها بكل تمعن وحذر، وأن نخضع المعلومات التي يقدمونها لنا إلى التحليل الدقيق والمناقشة الشديدة حتى نتمكن من الاقتراب إلى الحقيقة التاريخية من ناحية، والابتعاد عن الخرافات والأساطير والكذب والتشويه الذي قام به هؤلاء المؤرخون الغربيون للجهاد الإسلامي في البحر من ناحية أخرى.

أما بالنسبة للرأي العام الأوربي كان تأثيرهم أكثر بالقسم الأول من هؤلاء المؤلفين وهم الأكثر كراهية للعرب والمسلمين، ورأوا - كما رأى مفكروهم وسياسيوهم - في الغزوات البحرية العربية أو الجهاد

---

1 - Marcel J.J. Histoire de Tunis, Précédée d'une description de cette régence par le Docteur Louis Frank, Paris. Didot, 1851.

البحري الاسلامي التي كان يقوم بها الغزاة العثمانيون والعرب في البحر المتوسط والخليج العربي والبحر الأحمر في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية، وأوا فيهم بسبب عداوتهم لهم القراصنة الذين لا همّ لهم إلا الاستيلاء على السفن وعلى النصارى والرجوع الى موائلهم محملين بالغنائم الكثيرة.

وقد غدّى هذا التصور الخاطيء لنشاط المجاهدين المسلمين نصوص الرحالة النصارى الكتابات الأوربية طيلة قرون، واستقرت هذه الصور لمجاهدي البحر المسلمين التي رسمها أعداؤهم الأوربيون، وشاع هذا المفهوم في الغرب الى أن تبناه بعض المؤرخين والمثقفين العرب أنفسهم، وتسرب هذا المفهوم الى قاعات المعاهد والجامعات طُعماً لأبنائنا استوردناه من مفاهيم الغرب - مع الأسف - دون ترو ولا تمييز.<sup>(١)</sup>

أما المؤرخون العرب - والمغاربة بالخصوص - فقد كادوا يسكتون عن الموضوع، إلا نثفات من الخبريات والمعلومات المتفرقة المشتتة في الكتب المختلفة، حتى إننا لا نجد تأليفاً نستطيع التعويل عليه في الموضوع إلا كتاب «غزوات عروج وخير الدين» لمؤلف مجهول من القرن السادس عشر الميلادي، كأن شئون البحر عند العرب غير جدير بأن تؤرخ وأن تدون، أو كأن الفتوحات في البر هي أكثر سوءداً وأعظم شأناً من تلك التي تجري في البحر.

---

١ - الطاهر فيفة قرصنة أم جهاد في البحر الهداية السنة الأولى. العدد الثاني يناير ادارة الشعائر الدينية تونس ١٩٧٤م ص ٢١

## القرصنة ومصطلحاتها في الغرب :

القرصان Pirate كلمة مأخوذة من كلمة pirata اللاتينية وهي Peirates باليونانية من الجذر Peiran التي تعني «يحاول» أي في مفهوم «يحاول الحصول على الثروة في البحر». (١)

ويعرف رجل القانون كلوبر «القراصنة» بأنهم أولئك الذين يمارسون مهنة اللص في البحار دون الترخيص لهم في ذلك من أية حكومة (٢) ويفهم من هذا التعريف أن ليس أعمالهم هي المنبوذة بقدر ما هي عدم وجود ترخيص لهم في نشاطهم.

أحياناً يطلق على قرصان البحر بالفرنسية Forban وهي عبارة مكونة من كلمتين fors et ban أي hors la loi وباللغة العربية يكون المعنى «الخارج عن القانون» يقصد بها كل من يقوم بحملة بحرية مسلحة دون رخصة معتمدة من حكومة معينة. (٣)

أما كلمة flibustier الفرنسية فهي مأخوذة من الكلمة flibutor المستعملة في اللغة الانجليزية العتيقة، وهي بدورها من كلمة vrijbueter الهولندية الأصل، وهي تعني «ذلك الذي يسلب ويتحصل على الغنائم البحرية». (٤)

---

1 - Albert Dauzat, Dictionnaire étymologique.

2 - Kluber Droit des gens européens.

3 - Dictionnaire Larousse.

وكلمة Corsaire تعني مَرَكَب و «قرصان»، وتستعمل في أكثر الأحيان لتدل على القرصان، الجمع قراصنة وهو «لص البحر»<sup>(١)</sup>. ومن الواضح هنا أن هذا اللفظ أعجمي، لا نجد له ذكراً في معاجمنا وقواميسنا العربية القديمة ولا حتى الحديث منها، ولا شك أن العرب وخاصة سكان المغرب العربي أخذوا من الكلمة الإيطالية Corsa التي معناها الجري، أو أخذوه من الكلمة الإيطالية أيضاً corsaro التي تعني الصعلوك أو اللص، فهي إذاً من الدخيل في اللغة العربية وفي اللهجات المغربية وأصبح معناها الغارات البحرية أو اللصوصية في البحر، ثم اصطنعوا من الكلمة فعل «قرصين» واسم «قرصان» مفرداً وجمعاً، واستعملوا قراصنة و «قراصين» للجمع<sup>(٢)</sup> ولم يستعمل ابن خلدون ولا غيره هذا الصطلح الدخيل عند حديثهم عن الغزو البحري.

## مفهوم القرصنة مخالف للغزو الاسلامي في البحر

لقد تعود الكتاب عدم التفريق بين القرصان اللص من جهة والمجاهد الفاتح في البحر، من أن الفرق واضح فاللص يبحر لحسابه الخاص وبدون إذن من سلطان أو حكومة فهو في هذا مثل قطاع الطرق في الفيافي والقفار، وعمله عمل فردي أو عمل جماعة قليلة،

1- J. b. Belot. dictionnaires Francais Arabe, Beyrouth, 1952.

٢- مولي بلحميس الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر. مجلة تاريخ وحضارة المغرب كلية الآداب والعلوم الانسانية. جامعة الجزائر رقم ٤. يناير ١٩٦٨ م ص ٧.

أما المجاهد في البحر في العالم الاسلامي فهو كالجندي المنظم يعمل تحت اشراف السلطات وفي حمايتهم، ويكلف بالهجوم على سفن ومراكب بعض الدول المعنية ويتحاشى الأخرى عملاً بالاتفاقات المبرمة، ثم إنه يتقاضى مبلغاً معيناً من احدى الدول العربية والاسلامية أو من رجالاتها وأعيانها.

فالغزو الاسلامي بهذا المعنى - وهو المعنى في هذه الدراسة - عمل سياسي واقتصادي واجتماعي وديني رأت فيه الخاصة والعامة منافع عديدة فساهم الناس في تنشيطها كعمل ديني و وطني<sup>(١)</sup>.

وينقسم نشاط مجاهدي البحر المسلمين في البلاد العربية في العصر الحديث الى نوعين متميزين: «خاص وحكومي» مع ملاحظة أن كليهما مسنود من الدولة ومحمي بها.

الخاص: هو الأسبق تاريخياً، ونشاطه يرجع في الأغلب الى أسباب دينية أساساً، فهي شكل جديد للحروب الصليبية مجالها البحار أو الخلجان والمحيطات، ومنذ القرن العاشر الميلادي في عهد الدولة الفاطمية وجد هذا النشاط الخاص وهو أكثر نشاطاً من الحكومي لأنه غير تابع للسلطة السياسية ولضغوطاتها مباشرة، لذا كان في العصر الوسيط أكثر سطوة من الحكومي وبالأخص عند ضعف الأنظمة السياسية القائمة في المنطقة في ذلك العهد، وفي بعض الأحيان كان يتجاوز مراقبة الدولة الى أن يصبح عائقاً في وجه

---

١ - أنظر المرجع السابق ص. ١٠ وكذلك

A. Devoul, Le Registre des Prises Maritimes, p. 2.

سياسة الدولة، وعاملاً مربكاً لها في علاقاتها واتفاقاتها مع ما يهملها من الدول النصرانية<sup>(١)</sup>.

الى هذا النوع من النشاط الحربي البحري التابع للخواص كانت ترجع أنشطة مجاهدي غزاة البحر المسلمين في الخليج العربي وشرق البحر المتوسط وتونس في العصر الحديث في أغلب الأحيان، فهذه الأنشطة الجهادية كانت محمية من الدولة وبإذن منها ولم تكن احتكاراً للدولة ولا احتكاراً للأتراك، بل كانت صناعة تشجعها المؤسسات الدينية ويتولاها أعيان البلاد ورجالات الدولة، مثل الكواهي والوزراء، ورجال الأعمال كأفراد أو كعائلات.

ولهؤلاء يرجع - في أغلب الأحيان - تمويل مراكز الغزو وتسليحها والانفاق عليها.<sup>(٢)</sup>

غير أن هذا لا يعني أن الحكومة - في هذا النوع من النشاط - لم تشارك مباشرة فيه، فقد كان لها في فترات محددة من التاريخ الحديث مشاركة قوية ورسمية في الغزو البحري، وكان لها في كلا النوعين - الخاص والرسمي - امتيازها المقنن في الغنائم لمختلف أنواعها، بل كان لها امتياز اختيار أحسن ما في الغنائم قيمة سواء كانت من الرجال أو النساء أو البضاعة وكذلك امتياز مباشرة المفاوضات وقبض التعويضات التي تدفعها الدول أو المؤسسات أو العائلات أو غيرها في

---

1 - Monlaú Jean, les Etats Barbaresques, (Que- sais- je), Presse Univrsitaire de France 1964, P: 38.

2 - Valensi, Lucette, Le Maghreb avant la prise d'Alger, 1790-183? Paris, Flammarion. 1969. P: 65.

البلاد الأوربية لاطلاق سراح الرقيق والأسرى وارجاعهم الى مواطنهم الأصلية الغربية، وكانت قيمة التعويض هذا تزداد وتنقص باعتبار أهمية الأسير ومنزلته في وطنه في مختلف الاعترافات من ثراء وحسب ونسب وعلم ودين.

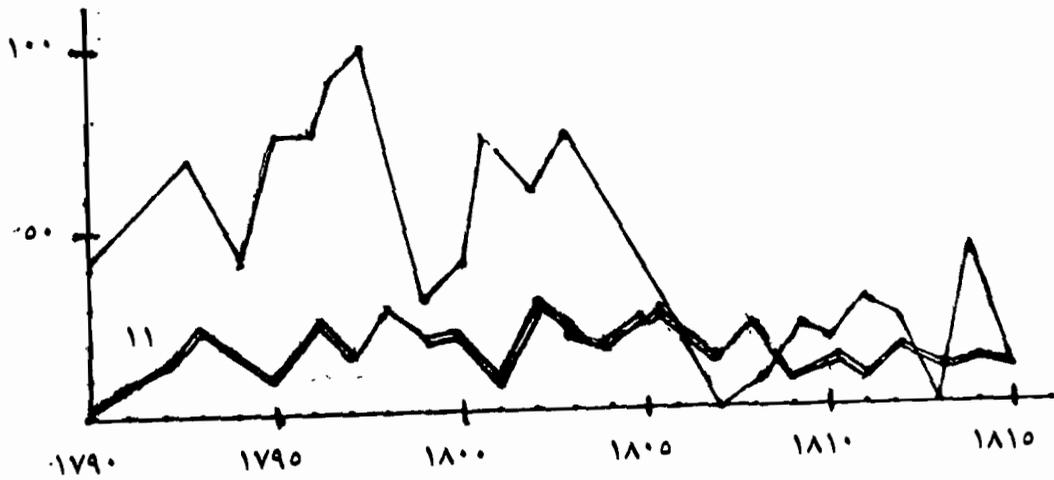
أما النوع الثاني وهو «الأنشطة الحكومية» فقد كانت مرتبطة دائماً من قريب أو من بعيد بدولة اسلامية معترف بها دولياً، وفي هذا المجال كانت الدولة هي التي تقوم بتجهيز المراكب وتسليحها والانفاق عليها وتوجيه أعمالها، وهو النشاط الذي تتحكم فيه مشيئة الحكام وهم يحددون مجاله وسياسته.

وبالنسبة للمغرب العربي نلاحظ أن النشاط الجهادي في المغرب الأقصى خمدت شوخته منذ نهاية القرن السابع عشر عندما توقفت أنشطة الخواص عن العمل.

وحتى لما عوض بالنشاط الحكومي كان دائماً ضعيفاً وغير ذي مفعول وقد حاول عدد من السلاطين المغاربة تقويته ولكن بدون جدوى فعلية، فقد كان عدد سفن المجاهدين سنة ١٧٦٤م لا يتجاوز ١٥ وفي عهد مولاي سليمان ١٧٩٢ - ١٨٢٢م كان الأسطول الجهادي المغربي معدماً عملياً، وفي سنة ١٨٢٩م بعد انشائه من جديد حطمت دولة النمسا ذلك الأسطول عن آخر ميناء في مدينة لعراش، لهذا السبب لم تغتنم المغرب الأقصى فرصة الأحداث التي طوحت بأوروبا سنوات عديدة خاصة بعد الثورة الفرنسية وحروب نابليون بوناپرت.

بالنسبة للجزائر وتونس الوضع كان يختلف فقد استغل أسطولاها تلك الأحداث والحروب لشن حرب اقتصادية ودينية عن السفن الأوروبية، لكن نلاحظ تقهقر قوة الجزائر البحرية بالمقارنة مع قوة تونس وليبيا، وفي آخر القرن الثامن عشر أخذت تونس المرتبة الأولى في تلك القوة البحرية.

أما عدد الغزوات البحرية التونسية فقد قارب المائة سنة ١٧٩٨، في نفس الفترة لم يكن للجزائر أكثر من عشرين سفينة مسلحة، وهي في هذا الوضع، بعيدة عن الـ ٧٥ سفينة حربية التي كانت تجهزها الجزائر بصفة مستمرة سنة ١٦٢٣ زمن خير الدين بربروسا.



بسابورتات (جوازات خروج سلمت الى مجاهدي البحر اخط بياني):

- ١ - للبحارة التونسيين.
- ١١ - للبحارة الجزائريين.<sup>(١)</sup>

١ - فالينزي المغرب قبل احتلال الجزائر. المصدر السابق. ص: ٦٥

ولعل أهم أسباب التقهقر الجزائري هو أن النشاط الجهادي كان حكومياً ولا يسمح لغيره بتجهيز المراكب، في تونس كانت معظم قوى ذلك النشاط خاصاً - كما ذكرنا سابقاً - وبلغ منذ الربع الأول للقرن السابع عشر الى نهاية القرن الثامن عشر أكثر من ثلاثين سفينة حربية قوية عدى المراكب الأخرى، ومن الصعب تحديد عددها الآن في خزائن الوثائق.

ثانياً: موقع «جهاد البحر» الاسلامي من القرصنة الغربية في البحار العربية

من البدايات التاريخية أن القرصنة الأوربية في البحر المتوسط والأحمر والخليج العربي كانت هي الأسبق تاريخياً والأشمل جغرافياً من «جهاد البحر» الاسلامي في كامل المنطقة الاسلامية. . ولم يحتكر المسلمون هذا النوع من النشاط البحري لأسباب لصوصية كما فعل الأوربيون حتى في زمن أوج قوة البحر الجهادية الاسلامية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر خاصة في شمال أفريقيا.

على يد الأوربيين ظهرت القرصنة البحرية ذات الصبغة اللصوص الاجرامية الاستعمارية، على أيديهم ظهرت هذه العصابات الاجرامية جلية لأول مرة في تاريخ المنطقة، فمذ الألف الثانية قبل الميلاد غزا سكان شمال أوربا «أصحاب العيون الزرق» بلاد اليونان وجزر بحرايجه، ثم اتجهوا جنوباً صوب قوة معتبرة عندئذ هي مصر الفراعنة، وقد وجد قراصنة أوربا في مصر لعدة قرون

أرض الخصب والثراء أو الازدهار الزراعي والحضاري خاصة في دلتا النيل، وأنشأ برابرة الشمال هؤلاء مراكز لسلب مصر من خيراتها وغزوها، في جزيرة كريت وليبيا وسواحل الشام، وفي النقوش والنحوت على الآثار الفرعونية، يسجل هزائهم على أرض مصر خير تسجيل.

وبدون أن نرجع الى فترات تاريخية قديمة ولا حتى الى عهد الوندال، وإذا حصرنا نظرتنا في التاريخ الوسيط والحديث فقط لوجدنا البحار تغلي غلياناً بالنشاطات القرصنية الأوربية ضد البلاد العربية الاسلامية، فالمركز الاستراتيجي للبلاد العربية في شرق البحر المتوسط وغربه، وكذلك في البحر الأحمر والخليج وأهمية مركز عالمنا العربي تجارياً وزراعياً وصناعياً وكذلك دينياً - بالنسبة للمسيحيين واليهود أيضاً - والحروب الصليبية لازالت آثارها قائمة جليلة الى الآن جعلتهم يتكالبون على وطننا لمصالح سياسية و اقتصادية وعسكرية، ويعملون على نهش العالم العربي والاستيلاء على معظم بحارة وموانئه ومراكزه التجارية سواء في المشرق أو المغرب العربي وبعضها تحت حوزتهم الى الآن.

فقد كانت نشاطات قرصنة البنادقة - سكان البندقية - قوية ضد بلاد الشام وجميع سواحلها البحرية، ومثل البنادقة كان الصقالبة والألبان، وأهالي جزر الباليسار، وجزيرة كورسكا، بل كانت لجميع الدول الأوربية جولات وأساطيل قرصنية مهولة في كل البحار العربية والبحر الأبيض المتوسط بأكمله، وقد اشتدت قبضتها بقوة على المسلمين في البحر الأحمر والخليج العربي، وفي المحيط الهندي..

خاصة على أيدي النورماندين والجنوبيين والبنادقة والمدن الايطالية الأخرى وكذلك فرنسا واسبانيا والبرتغال واليونان والانجليز والأمريكان في آخر السلسلة.<sup>(١)</sup>

أما بالنسبة للقوى البحرية الاسلامية فلم تجد مجالاً للدفاع عن كيانها وللحفاظ على مصالحها السياسية والتجارية والأمنية إلا أن تجابه تلك القوى القرصنية الأوروبية المتشعبة بالعداء الديني ضد الاسلام والمسلمين، الحاقدة على الفتوحات الاسلامية والتمدن الاسلامي والتفوق الحضاري العربي، فضمرت الشر للمسلمين ولمصالحهم أينما كانوا خاصة بعد انهزاماتهم المنكرة في حروبهم الصليبية في البلاد الاسلامية من الشام الى مصر الى تونس، وازداد لهيب حقدهم اشتعلاً بعد انهزامهم في حروبهم الصليبية الموحدة ضد المسلمين، وانهزامهم أمام الغزاة الفاتحين العثمانيين في ممالك بيزنطة وولاياتها، وفتح القسطنطينية عاصمتها، وفتح بلاد البلقان وأوربا الشرقية الى مدينة فيينا.

كل ذلك من جهة وفتح المسلمين لجزر البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى . . نتيجة لهذه الفتوحات الاسلامية وتطور تمركز الدولة العربية الاسلامية في كامل الأقطار العربية والاسلامية المشرفة على البحر المتوسط، أصبح ذلك البحر طوال معظم العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة بحيرة عربية . .

---

1 - Hubert Deschamps. Pirates et Flibustiers. (Que-sais-je?) Paris, Presse Universitaire de France, 1962, P: 18 - 20.

يذكر ابن خلدون عظمة العرب والمسلمين البحرية في ذلك البحر بقوله:

«وقد كان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريش وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج.<sup>(١)</sup>»

### غزاة البحر لشمال أفريقيا في العصور الحديثة:

الواقع الذي بيناه سابقاً من أن القرصنة أوربية المنشأ والتسلط في كامل الفترات التاريخية، يتأكد حتى فيما يتعلق بجهاد البحر بالشمال الأفريقي في العهد العثماني بالذات، فالعنصر الأوروبي سواء اعتنق الاسلام أم لا، كان النواة والمحرك الأصلي للقوى البحرية الاسلامية العربية في المغرب العربي في العصر الحديث، وإن أطلق عليها المؤرخون «القرصنة التركية» أو «قرصنة بلاد البرير» فهي في الحقيقة يتكون أفرادها من خليط غير محدد من الأجناس والجنسيات أغلبها أوربي الأصل والمنبت، غير أنهم جميعاً كانوا تحت

---

١ - عبدالرحمن بن خلدون كتاب العبر بيروت. مكتبة دار الكتاب اللبناني.

حماية حاكم الولاية العثماني من جهة والدولة العثمانية المركزية في اسطنبول وهيبتها من جهة ثانية .

ويتضح هذا أكثر لما نعلم أن التطاحن العثماني الأسباني على النفوذ وضمّان المصالح المختلفة في البحار العربية، كان مجاله البحر الأبيض المتوسط بحوضيه والبحر الأحمر والخليج العربي، وكانت هذه المناطق بين حجري رحي ذلك التطاحن، وهذا يفسر سر انبثاق حركة الجهاد البحري بشمال أفريقيا بتلك القوة وفي تلك الفترة التاريخية بالذات، الى أن تصدرت تلك المناطق العربية واجهة التطاحن المسيحي - الاسلامي في البحار والخلجان .

هذا الاطار على الساحة العربية يمثل أرضاً خصبة للجهاد ضد التسلط الأوربي وخاصة الأسباني والبرتغالي، بعد قتلهم وتشريدهم للمسلمين الأندلسيين، وبعد احتلالهم لأجزاء كثيرة ومراكز استراتيجية عديدة في كامل أنحاء الوطن العربي<sup>(١)</sup> بعضها لازال الى يومنا هذا تحت سلطة الانسان - كما أشرنا سابقاً .-

ذكرنا أن نواة النشاطات البحرية الشمال أفريقية في العصر الحديث كانت تتكون من أوربيين أصلاً في الأغلب بعض هؤلاء كانوا من المغامرين في البحر والباحثين عن الثروات السريعة الانجاز . . وبعضهم الآخر كان من المسلمين العثمانيين الغزاة في البحر، ثم تكونت فئة كبيرة وقوية من رياس البحر السابقين وأتباعهم وكذلك الأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين في سواحل أسبانيا وفرنسا

---

١ - أنظر: مونرو. المصدر السابق. ص: ٤٥ .

والمدن الايطالية وسردينيا واليونان وبلاد البلقان، ومن أوائل هؤلاء في المغرب العربي خير الدين وأخوه عروج بربروسا اليونانيان مولداً<sup>(١)</sup> وحسن آغا السارديني الذي خلف خير الدين في حكم الجزائر من سنة ١٥٣٦م الى ١٥٤٣م . . يذكر أحد المؤرخين حسن السارديني بقوله: «فأنشأ احدى وثلاثين غليوطة . . فاشتدت بذلك وطأته على أهل اسبانيا . . وفعل بهم ما كان يفعله خير الدين بهم أو أكثر<sup>(٢)</sup> . .!» وكذلك درغوث اليوناني الأصل<sup>(٣)</sup> . . وحتى الأتراك العاملين في الغزو كان أكثرهم من البلقان أو الأناضول<sup>(٤)</sup>.

في المغرب الأقصى أيضاً لعبت عوامل خارجية دوراً هاماً في نمو الأسطول خاصة في مدينتي الرباط وسلا، ومن أهم هذه العوامل توفر الرجال الأجانب في الملاحة البحرية ووجود غزاة بحر من الجزائر . .

ويمكننا أن نضيف عاملاً آخر خارجي بالنسبة للمغرب الأقصى هو منع ملك انجلترا جيمس الأول James I أي نشاط لقراصنة في انجلترا وفي الممالك التابعة له سنة ١٦٠٣، فغير هؤلاء القراصنة على أثر ذلك المنع موانئهم ومراكزهم التي كانت في انجلترا وايرلنده بالخصوص، واتجه عدد كبير منهم نحو السواحل المغربية واستقر عدد

---

١ - أنظر: Mouloud Gaid L'Algérie sous les Tuross Tunis. M. T. E. 1947.

٢ - محمد بن محمد التلمساني. الزهرة النائرة. مجلة تاريخ المغرب وحضارته. العدد الثالث. ص: ١٥.

٣ - أنظر: Tahr Gaid, Dargouth Rais, Tunis, M. T. E. 1947.

٤ - مونرو. المصدر السابق. ص: ٧٣.

كبير منهم في مدينتي المعمورة والعرائش الساحليتين. (١)

وكان الضابط الانجليزي الربان Henry Mainwaring من أوائل المؤسسين للقوى البحرية المغربية في المعمورة (٢) وفي سنة ١٦١٤ احتل الاسبان مدينة المعمورة وطردوا القراصنة الأوروبيين الآخرين منها، فانتقل هؤلاء الى مصب أبي رقراق حيث وجدوا أعداداً كبيرة من الأندلسيين المتلهفين للعمل معهم في البحر للانتقام من الاسبان والبرتغاليين وازدادت رغبتهم خاصة بسبب عدم تمكن هؤلاء الأندلسيين من الاندماج في البيئة المحلية المغربية، وفي سنة ١٦٢٥م عين مولاي زيدان، سلطان المغرب السعدي مراد واسمه الأصلي jean Jauzoon من مدينة Harlem بهولندا، عينه قبطاناً على الأسطول المغربي. (٣)

ومن هذه العوامل الخارجية أن سكان مدينتي الرباط وسلا لم يشعروا بسبب للاتجاه في أنشطتهم نحو البحر والسواحل، فمنطقتهم كانت من أخصب أقاليم المغرب، غير أنه في القرن السادس عشر بدأت الأوضاع تتغير إذ تحول البحارة البرتغاليون وبعدهم الهولنديون عن طريق البحر رأساً الى الأقاليم الأفريقية الواقعة جنوب الصحاري متجاوزين بذلك المحطات التقليدية في السواحل المغربية، وأدى هذا

- 
- ١ - جيروم واينر. المغرب «وقراصنة» المغاربة في القرن السابع عشر. مجلة البحث العلمي. المعهد الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد ٢٩ - ٣٠. السنة ١٦ ١٩٧٩م ص: ٢١.
  - ٢ - مونرو المصدر السابق. ص: ٧٠.
  - ٣ - واينر. المغرب وقراصنته. المصدر السابق. ص: ٢٥.

التحويل في المسار التجاري البحري بل الى تقلص حركة القوافل الى شللها، ووضحت لأعين السكان ظاهرة جديدة في حركة الملاحة شملت المحيط الأطلسي بكامله وخاصة سواحل أفريقيا الغربية وكانت هذه الظاهرة هي التي أعطت أهالي الرباط وسلا الحافز للاتجاه نحو البحر في نهاية الأمر، والعامل المهم والأخير هو وجود ثروة بيد جالية المورسيكوس والقراصنة الغربيين كانت كافية لتمويل الغزوات البحرية الأولى ضد النصارى.<sup>(١)</sup>

دامت نشاطات المجاهدين الشمال أفريقيين ثلاثمائة سنة متواصلة، حاجزاً منيعاً حمى الاسلام والمسلمين في الشمال الأفريقي، ولا يمكننا أن نغبط حق هؤلاء في هذا المجال، ولهذا أطلقنا عليها اصطلاح «جهاد البحر» أو «غزاة البحر» فالدول المغربية الأربع كانت غير موحدة بل في أغلب الأحيان متعادية ومتناحرة في الفترة التي ندرسها، ولم تكوّن وحدة في كامل تلك المدة فقط، بل كانت كل من تلك الدول تستعمل مختلف الوسائل للايقاع بالأخرى بل غزوها اذا سمحت الظروف.

المغرب الأقصى تحكمه عائلة الحكم فيها وراثي، وكل سلطان منهم يتولى العرش يبايعه الخاصة والعامة في كامل السلطنة، بما فيهم أعيان وزعماء المدن والقبائل وفرق الجيش وقادته، وكم كانت الفتن بين الأمراء للاستيلاء على العرش تعصف بالمملكة جميعها في أتون سنوات طويلة وصراعات عديدة.

١ - المصدر السابق. ص: ٢١ - ٢٣.

الجزائر كان الحكم فيها نمطاً من أنماط الحكم الشبيه بالجمهوري العسكري، تركيا بالأساس، وكانت الجزائر مرتبطة بالدولة العثمانية، مثلها مثل تونس، برباط صوري في السلطة ولكنه ديني في الأغلب، والولاية في الجزائر أترك وكذلك العمال «محافظو الأقاليم» والجند الرسمي، وهؤلاء هم نقطة الوصل بين السكان الأصليين والداي، أعلى مراتب السلطة في الولاية، وكم كانت الثورات والفتن تهز كامل مناطق الجزائر بصفة مستمرة.

في تونس كان الحكم تركيا عثمانياً، ولكنه متمثل في عائلات وراثية تركية وعثمانية الأصل، أصبحت محلية فيما بعد، وكذلك في ليبيا، غير أن الثورات والفتن في البلاد التونسية لم تهدأ أيضاً خاصة الحروب الأهلية الناتجة عن تطاحن الأمراء على الحكم، وقد تخلص حمودة باشا الحسيني في تونس من الجيش التركي منذ سنة ١٨١١م بعد ذلك، وكذلك عمل على تحقيق الاستقلال الكلي عن الدولة العثمانية وعن الجزائر معاً، ونجح الى حد كبير في ذلك.

حتى أنه احتل طرابلس لارجاع الباشا القادر مانلي الى عرشه على عكس الرغبة التركية في اسطنبول.<sup>(١)</sup>

هذه الخلافات بين الأنظمة والاختلافات الطاحنة بينها جميعاً كانت عاملاً مشجعاً لازدهار نشاطات الجهاد البحري الاسلامي الشمال أفريقي التابع للخوارج، ووجهت الغزو والحروب المقدسة

---

١ - أنظر: رشاد الامام كاتب البحث. سياسة حمودة باشا في تونس. ١٧٨٢ -

١٨١٤. تونس منشورات الجامعة التونسية ١٩٨٠م.

وفكرة الجهاد المقدس نحو البحر الذي تسلط النصارى الغربيون عليه، وبالتالي عملوا على رد العدوان النصراني الذي كان مدفوعاً بمصالح اقتصادية واستراتيجية وسياسية وبشعور ديني صليبي واضح.

### ثالثاً: تقاليد أنظمة القوى البحرية

يتساءل المرء لماذا لم يكن للبحر إلا تأثير طفيف على عقلياتنا - نحن العرب - وعلى مشاعرنا وخيالنا، ومياه البحر تهدد سواحلنا من سيراك الى البصرة الى عمان الى عدن الى جدة الى الاسكندرية الى يافا الى طرابلس الى الشرق والغرب الى اللاذقية الى صفاقس والمهدية، وتونس، وبنزرت وعنايه وبجاية، والجزائر وطنجة والرباط ونواكشوط... وغيرها.

لم يترك البحر في تراثنا الزاخر على الرغم مما نحمل عليه من بضاعة للأماكن البعيدة للتجار وأساطيل حرب وجهاد لم يترك في كتاباتنا ولا في انتاجنا المعاصر أثراً يذكر، فهي قليلة نادرة، سواء شعراً أو نثراً، فأوصاف البحر قليلة، والرحلات في البحر أقل، اذا قارنا بالرحلات في البر، لولم يخترع لنا الخيال الشعبي العربي في العصر الوسيط في قصص ألف ليلة وليلة قصة السندباد البحري وقصة عبدالله البري وعبدالله البحري لكانت خيبتنا أشد.

اليونانيون كانوا يفرعون من البحر ولا يتوغلون فيه وأكثروا من الحديث عن أخطاره ولم ينظموا مسابقة واحدة في السباحة وهم مؤسسو المسابقات الرياضية الأولمبية، ولكن رغم ذلك كله تغنوا

بالبحر حتى كاد يطغى على أديمهم «فالأوديسا» للشاعر اليوناني المكفوف «هيرموس» هي أروع قصة بحرية عرفتھا الانسانية وهي لا تخلو في كل مرحلة من مراحلھا من وصف أهوال البحر، فالخوف من البحر كان حافظاً للخيال ومنمياً لحب البحر والاعجاب به.

والعرب ركبوا البحر في عهد مبكرة، مخروا عبابه في سفن مخططة بالليف وسعف النخيل، وكانت تنطلق من عدن وعمان، وربطوا الجزيرة العربية بسواحل الهند وسيلان وسواحل أفريقيا الشرقية وشواطئ مدغشقر مستخدمين الرياح الموسمية وجلبوا من تلك الأقطار البعيدة كل خير ووزعوه بضاعة على العالم..

وما أن انتشر الاسلام في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى أنشأوا مصانع السفن في الاسكندرية وفي تونس على يد حسان بن النعمان في القرن الأول الهجري، وما مرت الا سنوات قليلة على انتشار الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر، حتى دمر الأسطول الاسلامي الفتى الأسطول البيزنطي العتيد في معركة الصواري في عرض بحر الشام، فخلا له البحر الأبيض المتوسط حتى حاصر القسطنطينية بحراً مدة شهر في عهد معاوية بن أبي سفيان، واكتشفوا آسيا وأفريقيا الشرقية وبلاد الزنج وبلغوا مناجم الذهب بروديسيا ونزلوا بمدغشقر واستقروا في جزر وسواحل أوربا.

وعلى الرغم من تلك الانتصارات والاكتشافات نكاد لا نجد مصدراً عربياً يحدثنا ملياً عن نشاط القوى البحرية العربية الغازية، والمصادر الأجنبية تكاد تكون الوحيدة التي مدتنا بالمعلومات حول هذا

الموضوع، وبما أنها مصادر اهتمت بالدرجة الأولى بوصف سلبيات ذلك الغزو العربي والنيل من المسلمين ومن تصرفاتهم، لذا علينا أن نأخذ معلوماتنا بكل حذر وشك - كما سبق وذكرنا - فتكون المادة المتوفرة في هذا الموضوع قليلة، وما يتعلق بأنظمة القوى البحرية في اطارها العربي يكون أقل وأندر.

القرصنة اللصوصية الأوربية مؤسسة وجدت من يوم أن امتطى الانسان البحر، ثم أصبحت عادة وتقليداً لدى معظم الدول والجماعات البحرية، سواء للغزو أو لأخذ الثأر من غزو سابق أو للدفاع على النفس وفرض الهيبة، وكان رجال البحر يتنقلون بكل حرية في البحار بدون اعتبار لمفهوم المياه الاقليمية، فالمياه الاقليمية لم تكن محددة لا بأميال ولا بمسافات بصرية، المياه الاقليمية كانت تفرضها هبة الدولة وسطوة أسطولها، وبقدر ما تكون الدولة قوية بحرياً بقدر ما تنأى حدود مياهها الاقليمية داخل البحر، والعكس بالعكس، وفيما عدا ذلك وفي أعالي البحار خاصة ينشط هؤلاء بيد مطلقة أو تكاد.

حتى السفن التجارية كانت في أغلب الأحيان تأخذ طريقاً محاذياً للسواحل لأنها في مياه اقليمية بل حتى تكون اليابسة قريبة لها عند حصول غزو بحري، وكانت السفن بجميع أنواعها تتحاشى الاصطدام مع القوى البحرية، أو حتى التقابل معها في البحار لأن سفن القراصنة كانت تستعمل طرقاً شتى للتمويه والتغليط والتستر

---

١ - فيفة. قرصنة أم جهاد. الهداية. العدد الثالث. ص: ٣٠ - ٣٣.

فكانت تظهر في شكل سفن صيد سمك، أو سفن تجارية، أو تكون حاملة لعلامات وأعلام دولة صديقة للسفينة أو السفن التي ستقع في الفخ.

وكانت السفن تبحر مجموعات مجموعات حتى تتمكن من صد هجوم رجال البحر المفاجيء والعنيف، وإذا انفصلت سفينة من السفن عن المجموعة أو تأخرت عنها تكون هدفاً سهلاً للسطو. حتى سفن المجاهدين أحياناً كثيرة كانت تستعمل نفس الطريقة لضمان النجاح في الغزو، فقد كلف خير الدين بربروسا أحد قاداته وهو درغوث راييس سنة ١٥٤٣ بأن يتولى رئاسة جميع رياس وسفن البحر الأتراك أو العرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك لاعادة تنظيمها ميدانياً وضمها في شكل مجموعات قوية ضاربة، بدلا من أن تبقى مشتتة ومتناثرة.

وقد تجمع سفن الغزو الى مجموعات لتكون درعاً للأسطول الحربي أو التجاري في أعالي البحار، أو لتكون عيوناً وكشافات وطلائع للأسطول وقد أعطى هذا الاجراء التنظيمي دفعا قويا لنشاط الغزاة في شمال أفريقيا وأصبحت مؤسسة قوية كبيرة الأهمية اقتصادياً وعسكرياً لدول المغرب العربي.<sup>(١)</sup>

كان سكان شمال أفريقيا في الخطوط الأمامية يواجهون الأوربيين وخاصة الأسبان بعد أن طردوا المسلمين من الأندلس،

---

١ - مونرو. المصدر السابق. ص: ٢١ - ٢٢.

وشعر سكان المغرب العربي أن مصيرهم مرتبط بقدرتهم على السيطرة على البحر، حيث يتحفز عدوهم للتنكيل بهم، لقد كان قرار اسبانيا باحتلال الموانئ المغربية مكتسباً صبغة حملة صليبية، وهجموا بأسطول عظيم على المغرب الأقصى سنة ١٥٠٥، ومرة أخرى سنة ١٥٠٩م واحتلوا موانئ عدة حتى مدينة طرابلس وكان ذلك قصد التوغل في البلاد الاسلامية واحتلالها. (١)

ومنذ سنة ١٥٧٤م لما توجه الأسطول العثماني لفتح تونس من الأسيان كان ذلك الأسطول متكاملًا مع سفن المجاهدين في المنطقة، وقد كان المدى الجغرافي لنشاط السفن المغربية تجاه الدول والسواحل والجزر الأوروبية - خاصة العدو منها - غير محددة فوصل مدى سفن الغزاة الجزائريين والتونسيين والطرابلسيين والمغاربة الى جميع أنحاء الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وكذلك أصبحت نشيطة في القنال البريطاني والمحيط الأطلسي منذ سنة ١٧٩٠م. (٢)

وانتشار النشاط البحري الجهادي في البحر المتوسط نتج عنه تأسيس مدن ازدهرت بسبب ذلك النشاط، وبعض المؤرخين يرجع تأسيس الأنظمة بل الدول الشمال أفريقية في العصور الحديثة الى هذا النشاط فيها وهو غير صحيح، غير أنه يجب التأكيد على أن من

---

١ - فيفة. قرصنة أم جهاد. الهداية. العدد الثالث. ص. ٣٣.

٢ - منصور عمر الشتيوي (جامع ومترجم) حرب القرصنة بين دول المغرب والولايات المتحدة. من محاضر مجلس الأمة الأمريكي. طرابلس - ليبيا. مؤسسة الفرجاني ١٩٧٠م ص: ٣٥. الوثيقة رقم ٢٣ (٣٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٠م).

نتائج ازدهار بعض المدن مثل الجزائر والرباط وتونس، لأن تلك المدن أصبحت مخازن وأسواق تجارية رئيسة لموارد الغزو والرقيق بما فيهم من صناع وتجار وأصحاب اختصاصات مهنية وحرف، أصبحت تلك المدن مراكز ثقافية واقتصادية وعسكرية رائدة.<sup>(١)</sup> ولاشك أن بناء التحصينات على السواحل في البلاد الإسلامية والتي أصبحت تسمى الرباطات والأربطة وليدة للحاجة الشديدة لحماية البلاد الإسلامية من غزوات القرصنة النصارى الأوربيين منذ العصور الوسطى، وما رباط المنستير الذي تم بناؤه منذ سنة ٧٩٦م، إلا حصناً ضد القرصنة البيزنطية.<sup>(٢)</sup>

ولاشك أيضاً أن تخلي اسبانيا والعثمانيون عن البحر المتوسط أفسح المجال للقوى الجهادية لملء ذلك الفراغ بكل حماس وجدارة، وهذا تم عندما ضعفت الدولة العثمانية والدول الأوربية معاً في عهد الثورة الفرنسية وماتلاها من أحداث وحروب.<sup>(٣)</sup>

ونلاحظ أيضاً بداية استقلال الولايات العثمانية في الشمال الأفريقي النسبي عن اسطنبول بدءاً عملياً منذ سنة ١٧٠٥ في تونس وسنة ١٧١١م في الجزائر. وقد كان هذا الوضع عنصر تقوية آخر للنشاطات البحرية الشمال أفريقية أضفت إليه عنصر تقوية آخر هو ضعف اسبانيا وحل تحالفها مع البرتغال.<sup>(٤)</sup>

---

١ - مونرو. المصدر السابق. ص: ٧٤، ٩٠.

٢ - المصدر السابق. ص: ٢٧.

٣ - المصدر السابق. ص: ٧٠.

٤ - المصدر السابق. ص: ٦٤ - ٦٥.

وظهرت نتيجة الازدهار الذي أحرزت عليه القوى البحرية تقنيات وخطط وسياسات بحرية تتم عن مبادرات واكتشافات عسكرية هامة، فقد أدرك غزاة البحر سريعاً ومن قبل أعدائهم الأوروبيون والأمريكان أن سيادة البحر كامنة في الاستيلاء على الجزر من جهة، والاعتماد على أسطول سريع التنقل والوثوب من جهة أخرى، فأصبحت أساطيلهم تتكون من قطع خفيفة وسريعة تعمل في مجموعات لها أهداف مضبوطة، في حين أن الاسبان كانوا يحتلون الموانئ وبينون القلاع العظيمة، ويوكلون حراستها لحاميات ثابتة، مقطوعة عن داخل البلاد وراء أسوارها العريضة الحصينة، وهي معرضة للجوع والأوبئة، وغالب أ قواتها آتية من اسبانيا. . في حين أن الاسبان أيضاً كانوا يغزون بأساطيل ضخمة، تبلغ أحياناً ثلاثمائة سفينة وهي معرضة أثناء سيرها لمطاردة أسراب سفن الغزاة قليلة العدد سريعة التحركات.<sup>(١)</sup>

لقد كانت الغايات السياسية غالبية في الخطط الاسبانية، بينما كانت الأهداف العسكرية هي الغالبة في خطط العثمانيين.

وكتيجة للاهتمام بالجزر نرى عروج بربوسا منذ حوالي سنة ١٥١٠ يحط رحال أسطوله الغازي بجزيرة جربة، ثم يلحق به أخوه خير الدين في ظروف بلغت فيها حركة المد الصليبي الاسباني أوجها بالاستيلاء على طرابلس الغرب، وقد تبين لأهالي جزيرة جربة وجزيرة قرقة أهمية الجزر في الصراع المدمر الحاصل بين الأمم

---

١ - فيفة. قرصنة أم جهاد. المصدر السابق. العدد الثالث. ص: ٥٩.

الاسلامية المدافعة عن حماها، والأمم النصرانية المنضوية تحت لواء اسبانيا، وهي الدولة التي كانت مؤمنة بأن لها رسالة دينية يجب أن تؤديها لنشر النصرانية وفي نفس الوقت القضاء على الأمة الاسلامية .  
وليس مصادفة أن بدأ الأخوان عروج وخير الدين حياة الغزو في مقاومتهم الشديدة لـ «فرسان القديس يوحنا»، الذين أعلنوا حرباً صليبية شعواء على البلاد الاسلامية وسفنها في البحر، خاصة في الحوض الشرقي للمتوسط، يقطعون الطرق البحرية التجارية على المسلمين، ولما لم توفق الدولة العثمانية في فتح تلك الجزيرة بقواها العسكرية النظامية، بسبب عوامل داخلية وخارجية متعددة، أوكلت للغزاة تحقيق تلك الأمنية.<sup>(١)</sup>

كما وضع الغزاة علاقات متينة مع جزيرة كورسكا وكانوا يجلبون منها الخشب للسفن، والسلاح والبارود، الى أن أثارت معاملة أهل كورسيكا وتعاملهم القوي مع غزاة البحر غضب البابا في روما.<sup>(٢)</sup>

وقبل أن ننهي هذا الجزء من هذه الدراسة يجدر بنا أن نشير الى أن الأتراك العثمانيين كانوا يتولون في أغلب الأحيان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد قيادة ورئاسة سفن الغزو وتخطيط المعارك البحرية وكانت مهاراتهم وبسالتهم في استخدام الأسلحة

---

١ - المصدر السابق ص . ٣٤

٢ - المصدر السابق ص : ٦٠

النارية الجديدة مضرب الأمثال<sup>(١)</sup>، وكذلك يجدر أن نذكر أن رياس السفن كانوا يتبادلون قيادة السفن دائماً ولا يبقى قائد سفينة في سفينة معينة دائماً. حتى السفينة الواحدة تجدها تحت تعريفات وأسماء مختلفة في المصادر.

أما عن الأمور الأخرى فيمكن أن نوجزها في أن غزاة البحر في شمال أفريقيا كانوا يزودون بالمواد الأولية لنشاطهم البحري من البلاد الاسكندنافية: الحديد والخشب والذخائر الحربية ومن تركيا والولايات العثمانية الأوروبية: البحارة من ألبانيا وجزيرة كريت وغيرها من الولايات العثمانية الأوروبية التي اتجه سكانها الى البحر من شدة الفقر والحاجة، كذلك بعض البحارة كان يستجلب من المدن الساحلية الشمال أفريقية، أما مجهزو المراكب فكانوا يوفرون السفن وعتادها وأدوات ادارتها، والطعام من: القمح والرز والزيتون والزيت والخل والقهوة وأحياناً اللحم.<sup>(٢)</sup>

وكان مجهزو المراكب - خاصة في تونس - يكوّنون أحياناً شركات صغيرة، على غرار الايطاليين، يكون مفعول عقد الشركة صالحاً لخرجة بحرية واحدة ثم تحل بعد قسمة الغنائم باعتبار أسهم كل ممول في رأسمال الخرجة، وماقدمه من أسلحة أو خدمات

---

١ - المصدر السابق. ص: ٥٩.

٢ - فالينزي. المغرب العربي قبل احتلال الجزائر. ص: ٦٥ - ٦٦.

للغزوة، والباي - وهو الحاكم العثماني في تونس - يصبح له العشر من الغنائم اذا لم يشارك في تسليح وتجهيز السفينة، ولكن له حق السبق في الشراء بل الشفعة في امتلاك الرقيق المحجوز في الحملة بسعر جيد، بالنسبة لصاحب السفينة ومجهزها له النصف من الغنائم بعد طرح جميع المصاريف، أما البحارة والقواد والرايس فكل له حصة معينة حسب مرتبته وحسب كفاءته وما قدمه من جهد وانجاز في تلك الخرجة وأثناء المعارك، وجميع هؤلاء البحارة يقسمون النصف المتبقي<sup>(١)</sup>.

في تونس كان لا يحضر عملية اقتسام الغنائم إلا من شارك في التمويل والتجهيز والبحارة، عكس ما كان يحصل في الجزائر في اشتراك أناس لا حصر لهم في الاستفادة من المحصول من رسميين واداريين وعمال وحراس وعلماء دين معروفين، وغيرهم عدا أصحاب السفن والبحارة والداي الحاكم، وكانت مصاريف ونفقات عمليات بيع المحصول تساوي ١٥٪ تقريباً.

وكان باي تونس يحصل من تعويضات الرقيق بين ١٠٠٪ و ٢٠٠٪ من أرباح جاهزة.. وفي انتظار بيع الرقيق كان هؤلاء يستغلون في ممتلكات الباي والداي الى أن يتم التعويض<sup>(٢)</sup>.

---

١ - المصدر السابق.

٢ - المصدر السابق.

## تكريس منطق القوة والتحالفات الاستراتيجية ضد العالم العربي الاسلامي

ذكرنا سابقاً أن القرصنة الاجرامية اللصوصية الغربية كانت تمثل عدواناً نصرانياً مدفوعاً بشعور ديني صليبي طاغي ضد المسلمين والعرب أينما كانت سواحلهم ومراكزهم ومدنهم البحرية وبالذات في البحر المتوسط والأحمر والخليج، وكان ذلك العداء الغربي المتسلط مدعماً ومزكياً بسلطة الكنيسة البابوية بروما، بل مخططاً له هناك، ولا أدل على هذا مما أسسته كنيسة روما في مواجهة العالم الاسلامي في جزيرة رودس، فقد أنشأت وباركت مؤسسة قرصنية نصرانية عسكرية في جزيرة رودس، وجعلت من تلك الجزيرة رأس حربته صليبية عسكرية تشن منه الغارات باستمرار على السفن الحربية والتجارية الاسلامية.

وقد أسست الكنيسة مؤسسة فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس للعمل على تحطيم الأنظمة الاسلامية وقوة العالم الاسلامي، والتمركز في أجزائه البالغة الأهمية استراتيجياً في السلم والحرب على حد سواء، وهي مؤسسة ثأرية، بعد أن فشلت الحروب الصليبية، وتقهقروا عن الشام وفلسطين والقدس ومصر وتونس.

تجدر الإشارة هنا الى أن هذه المؤسسة الدينية العسكرية نشأت أول مرة في فلسطين أثناء الحروب الصليبية، وكانت منقطة لحماية الحجيج النصارى الى بيت المقدس، ولما انهزم النصارى وانسحبوا

عن فلسطين تمركزت المؤسسة في رودس لشن حروب دائمة على الحجيج والسفن الاسلامية، قاطعة بذلك مختلف الطرق التجارية بين أجزاء العالم العربي.

ووضع فرسان القديس يوحنا برودس بنود نظامهم الذي ينص فيما ينص:

«أنهم يعاهدون الله أساساً على ملازمة العفاف، والطاعة، والقناعة، ثم على حماية الكنيسة دوماً، وألاً يشهروا أبداً سيوفهم على أمة نصرانية، وألاً تكون لهم ديون. . . وأن يقبلوا القتال في جميع الحالات وألاً ينكسوا الراية، وألاً يطلبوا أبداً الأمان، وألاً ينهزموا، أو يستسلموا وأن يقوموا كل سنة بأربع غزوات ضد المسلمين»<sup>(١)</sup>.

وبعد قرون عديدة من محاربتهم للمسلمين بدون هوادة بروح صليبية مهدمة لمصالح المسلمين فتح السلطان سليمان القانوني الجزيرة بنفسه بعد حصار دام حوالي ستة أشهر، وتمكن عدد منهم من الفرار وبقوا يطوفون البحار سنوات عديدة الى أن أنزلهم الامبراطور الاسباني شارل الخامس - حامل لواء سياسة القضاء على المسلمين والاسلام في بلاده وفي كل مكان - بجزيرة مالطا، والهدف هو ذات هدف فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس، وأصبح اسمهم «فرسان مالطا» وكان لهم شأن وأي شأن في معظم الحروب والغزوات

---

١ - فيفة. قرصنة أم جهاد. المصدر السابق. العدد الثاني ص. ٢٣.

التي قامت بها الدول الغربية ضد البلاد العربية والاسلامية وعلى رأسها الدولة العثمانية.<sup>(١)</sup>

وكانت أهم المراكز القرصنية الأوربية ضد البلاد الاسلامية قائمة بالمدن التالية: «صقلية، لافاليت «عاصمة مالطا الآن» ليفورن، بيز، بالم، الماريا، وبلنسية، وكذلك الروس والكوزاكين Les Cosapus في البحر الأسود ضد السفن العثمانية التركية، ونضيف جزر الأرخبيل والسواحل اليونانية خاصة في بحر ايجه.<sup>(٢)</sup>

أما بالنسبة للمحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي فإن القرصنة الاسبانية والبرتغالية عششت فيها تسلطاً ولصوصية، خاصة وأن تلك المنطقة من امتياز موقعها الجغرافي الاستراتيجي بالنسبة للتجارة العالمية سيما من آسيا الشرقية والوسطى والهند. الى منطقة الشرق الأوسط ثم البلاد الغربية. وقد كانت تلك الخطوط التجارية مغرية جداً بثرواتها الكبيرة وسهولة عمل القرصنة فيها، وكان أهم مركز لنشاط القرصنة الغربية في تلك المواقع هي جزيرة مدغشقر، الجزيرة الكبيرة البدائية آنثد، كانت تمثل مركزاً على الخطوط التجارية البحرية، ويتوفر فيها القوت من انتاج زراعي ورز وماء وماشية، وكان الفرنسيون من أوائل من استعمل تلك الجزيرة مركزاً رئيساً لقرصنتهم في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج، وقد عاثوا فساداً واجراماً في كامل سواحل الجزيرة العربية<sup>(٣)</sup> وكذلك فعلت القرصنة البريطانية في البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج<sup>(٤)</sup> وقد

١ - المصدر السابق. نفس الصفحة. وأنظر ديشان. المصدر السابق. ص: ٨٧.

٢ - مور. المصدر السابق. ص: ٢١.

٣ - ديشان. المصدر السابق. ص: ٦٥ - ٦٦.

٤ - الشتيوي. حرب القرصنة. ص: ٢٧٨. الوثيقة ١٩٧.

عانت البلاد الاسلامية من هؤلاء الراقصنة الأمرين لأنهم لا يعترفون  
بصلح ولا يعملون بشروط معاهدة ولا ينصاعوا الآ للبطش  
والاجرام، وماداموا كذلك فإن توقفهم عن الأعمال القرصنية يجعلهم  
عاطلين عن العمل.<sup>(١)</sup>

أمام فشل الدول الغربية في القضاء على مجاهدي البحر  
المسلمين في شرق وغرب البحر المتوسط، فكرت في تكوين قوات  
أوروبية مشتركة لكل تلك الدول وترسم خطة عسكرية موحدة ضد  
الحكومات العربية والاسلامية، لكن تلك الدول لم تنجح في تكوين  
ذلك الاتحاد لتضارب مصالحها مع الدول العربية، وهو أمر ساعد في  
ايجاد ظروف مناسبة بالنسبة لحكام البلاد العربية ليكونوا السياسة التي  
يرتأون لبلدانهم في الداخل والخارج، دون خوف من أي قوة بحرية  
أوروبية تهددهم في استمرار نشاط جهادهم البحري الذي يضمن  
لهم الهيبة، وحتى بعض الدول الأوروبية التي تجرأت وبعثت  
بأساطيلها فرادى لمحاربة المجاهدين المسلمين لم يحالفها الحظ قط  
خاصة في شمال أفريقيا، ولم تجد مخرجاً لتلك القضية الآ بالرجوع الى  
اجراء المفاوضات وعقد المعاهدات مع حكام الدول العربية  
والولايات العثمانية، لأنه هو الحل الأفضل للمحافظة على مصالح  
تجارتها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي.

نتيجة لذلك الجهاد البحري العربي الاسلامي كان الأوروبيون  
يصيبهم الخوف والهيبة كلما اقتربوا من المياه الاقليمية العربية،

---

١ - ديشان. المصدر السابق. ص: ٤٦.

وتأصل هذا الرعب فيهم الى درجة الذل، وذلك لأسباب عديدة أهمها: انهزامهم في الحروب الصليبية وما تبعها من وقائع بحرية، وانكسار القديس لويس ملك فرنسا وموته في تونس سنة ١٢٧٠ وهزيمة الامبراطور شارل الخامس في حملته على تونس سنة ١٥٣٥، واختفاء الملك سيباستيان ملك البرتغال بعد هزيمته في المغرب الأقصى سنة ١٥٧٥م وهو الذي بقي مقتله أسطورة في كامل أوروبا<sup>(١)</sup> وقد تضاعف فزعهم ذاك لما تقوّت القوات البحرية العربية الجهادية خاصة بعد طرد النصارى الاسبان للأندلسيين المسلمين من الأندلس سنة ١٦١٠.

عانت الدول الأوروبية من تغلب القوى العربية وتفوقها في البحار العربية الأمرين، وبدأت تظهر بين رجالات أوروبا وحكوماتها دعوات تهدف الى ضرورة اتحاد قوى وأساطيل تلك الدول المتحاربة لمحاربة القوى البحرية العربية، أول من قدم مثل هذا المشروع اعتماداً على ما لدينا من معلومات هو كاي Dauvibert Caille سنة ١٧٨٣م، وهو الذي - حسبها ورد في وثائق باريس - دعا كاتب الدولة الفرنسية ووزير خارجيتها الكونت Vargennes الى وجوب مبادرة فرنسا بجمعية الدول الأوروبية وخاصة اسبانيا والبرتغال الى القيام بذلك الواجب الانساني على حد تعبيرهم ضد مجاهدي البحر العرب.<sup>(٢)</sup>

---

1 - De Flaux A. La Régence de Tunis au dix-neuvième siècle Alger, Bastide, 1865. PP: 129- 130.

٢ - خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية. مجموعة الوثائق السياسية. (أفريقيا (٥) ص: ١٨٩.

بعد أربع سنوات من تقديم ذلك المشروع ألف أحد رجال إيطاليا كتاباً عرض فيه قضية تحتم محاربة القوى البحرية العربية، خاصة بشمال أفريقيا، وذيله بمشروع يضم تقديرات سياسية ومعلومات عسكرية تضمن فوز الدول الأوروبية في تحقيق ذلك العمل . . أهم ما اشتمل عليه الكتاب هو:

«دعوة الدول الأوروبية جميعها الى بعث أسطول موحد لمحاربة القوى البحرية العربية الاسلامية، ويصف الكاتب المحاولات التي قامت بها أقوى الدول الأوروبية مرات عديدة بدون نجاح، بعد ذلك يشرح المؤلف وسائل نجاح مشروعه بقوله: إنه تجب محاربة هؤلاء بإرسال قوات أوروبية موحدة تغزو السواحل العربية، ثم تقصف جميع المدن الساحلية فيها، بعد ذلك تنزل الجيوش الى البر وتهدم بمدافعها كل ما يعترضها، مع ضرب حصار اقتصادي عليها شديد الاحكام، وأخيراً يدعو سكان أوروبا قاطبة للبدل والتضحية العامة من أجل تحقيق السلم والهناء والاستقرار . . حسب زعمه.<sup>(1)</sup>»

وقدمت مشاريع أخرى تهدف الى تحقيق نفس الغرض سنة ١٧٨٩م، بعد ذلك توقفت هذه الحملات والدعوات للقضاء الجماعي على القوى البحرية العربية، وذلك يرجع الى انشغال الدول الأوروبية التي اجتاحتها الحروب في تلك الفترة من الزمن، ومن أهمها فرنسا واسبانيا وبعض ممالك إيطاليا وبريطانيا وبروسيا والنمسا وهولندا وروسيا وغيرها.

---

1 - Anonyme, Memoire le système de paix et de guerre que les puissances européennes pratiquent, Venize, Formaleoni. 1788. PP: 19 - 20. 25 - 34.

إن ما يمكننا أن نؤكدّه هنا هو أن تلك المشاريع بما فيها من دراسات دقيقة واقتراحات ملحة، لم يكتب لواحد منها التدرج من حالته النظرية الى حالة العمل والتنفيذ، وترجع أسباب ذلك الفشل الى أمرين أساسيين:

الأول: عدم اتحاد الدول الأوروبية في جعل حد لمجاهدي البحر العرب بل استغلال الحكام المسلمين لخلافات الدول الأوروبية لتقوية أعمالهم البحرية.

والأمر الثاني: الكره المتأصل الذي كان يحمله العرب منذ صغرهم لكل أوربي باعتباره العدو الخطير على الدوام، ويؤكد قنصل بريطانيا في تونس هذا بقوله إن أول الكلمات التي يتعلمها الصبي في البلاد العربية هي أن يحارب النصارى ويغزوهم وهي آخر الكلمات التي ينساها العربي في حياته.<sup>(١)</sup>

في يوم ٣١ آب/أغسطس ١٨١٥م ورد على وزارة الخارجية الفرنسية من لندن بيان يتألف من أربع صفحات متوسطة الحجم مكتوبة باللغة الفرنسية، هذا البيان المهور بتوقيع سندي سمث W. SidneY Smith ينص على ضرورة ازالة الاسترقاق من قبل دول شمال أفريقيا، مع شرح للطرق والوسائل التي ستخذ لانجاز ذلك الأمر، وبعد أن يشرح اللورد سمث الأسباب التي دعت بريطانيا للقيام بتلك المبادرة المؤيدة من قبل مؤتمر فيينا ١٨١٥ وهي أسباب انسانية وحضارية كما يدعي، يذكر أن وسيلة تحقيق ذلك ستكون عن

---

١ - رسالة من ماجرا Magra الى حكومته بلندن. تونس ١٩ أيلول/سبتمبر ١٨٠٥ خزينه الوثائق البريطانية. Public Record office ملف ٧٧/٥.

طريق استعمال القوة الضاربة. (١)

وفي ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨١٥م نزلت قوة كبيرة من غزاة البحر التونسيين في جزيرة سانت انطيوخ Saint Antroche التابعة للتاج البريطاني في ذلك العهد، وسأقت معظم سكانها الى الرق بتونس، وقد أحدثت تلك الغزوة التي عمت أخبارها بسرعة فائقة جميع أنحاء أوروبا صحيحة هول في بلدان تلك القارة، ونتج عن هذه الحملة تصعيد كبير لقضية وجوب منع بلاد شمال أفريقيا من ممارسة الجهاد البحري والرق، وأصبحت عشرات الخطب الحماسية تلقى في مختلف المؤتمرات والمجالس السياسية والدينية تطالب الملوك بإيقافها حالاً أو الدخول في حروب صليبية جديدة. (٢)

في أوائل شهر نيسان/أبريل ١٨١٦م اتجه اللورد اكسماوث Exmouth على رأس أسطول بريطاني قوي الى بلدان شمال أفريقيا كمفوض من قبل الدول الأوروبية المشاركة في مؤتمر فيينا لوضع حد نهائي للنشاط البحري العربي والرق، وقد نجح ذلك القائد العسكري في عقد معاهدة مع داي الجزائر بعد أن دك الأسطول البريطاني حصون مدينة الجزائر البحرية والعديد من سفنها في مينائها، وعندما وصل ذلك القائد الى ميناء حلق الوادي يوم ١٢ نيسان/أبريل كانت القنصلية الفرنسية والقنصلية السويسرية بتونس قد بدأت منذ مدة مفاوضات مع الحكومة التونسية تهدف الى نفس

١ - خزينة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية. Les archives du Quai d'orsay.

مجموعة الوثائق السياسية (أفريقيا ٥) ص ٢٣٥ - ٢٣٨

2 - P. Grandchamp. Chronique de l'ancien temps. Reveue Tunisienne No 21. 1935. P: 83 - 89.

الأهداف التي يرمي اليها اللورد الانجليزي من مهمته تلك، وبعد ضغوط كبيرة من اللورد اكسماوث وقع محمود باي على المعاهدة، كما قدمها القائد يوم ١٧ نيسان/أبريل ثم اتجه ذلك الأسطول الى طرابلس الغرب يوم ٢٤ من الشهر ذاته حيث أجبر الباشا هناك على التوقيع على معاهدة مماثلة، غير أن المعاهدات الثلاث لم تنل رضا الدول الأوروبية لأنها لم تكن في بنودها ونصها قاطعة وملغية لجميع أنواع النشاطات البحرية الجهادية والرق.<sup>(١)</sup>

ولئن كانت تلك المعاهدات لم ترض الدول الأوروبية فإنها حررت كثيراً من الأرقاء الذين كانوا في تونس، وخففت من وطأة النشاطات البحرية الشمال أفريقية في البحر الأبيض المتوسط الى درجة ملحوظة جداً، وكذلك جعلت أسرى الحرب لا يعتبرون رقيقاً ويملكون بل يعاملون معاملة المسجونين برفق حتى تضع الحرب أوزارها، فيسرحون من غير فداء<sup>(٢)</sup> . . أما في تونس فقد نتجت عن ابرام تلك المعاهدة مضاعفات داخلية سيئة من أهمها ثورة جند الترك سنة ١٨١٦م التي كان من أسباب اندلاعها تسريح الباي للأسرى والرقيق الأبيض.<sup>(٣)</sup>

---

1 - A.D. Legrand La Tunisie: étude historique Paris. Claye, 1873. PP: 43 - 46.

٢ - خزينة وثائق الدولة التونسية. الملف رقم ٤٢١. كرتون رقم ٢٣٠.  
٣ - أحمد بن ابي الضياف. اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.  
٨ أجزاء. تحقيق كتابة الدولة للشئون الثقافية. تونس. المطبعة الرسمية.  
١٩٦٣م - ١٩٦٤م. الجزء الثالث. ص: ١١٧، ٢٢٠.

وقبل أن ننهي حديثنا في هذا القسم يجدر بنا أن نشير الى أن الغزوات البحرية الشمال أفريقية لم تنقطع بعد تلك المعاهدة بتاتاً بل بقيت عاملة ولكن بصورة أقل شدة مما كانت عليه قبلاً، ولم تتوقف بصفة نهائية إلا سنة ١٨١٩م تنفيذاً لمقررات مؤتمر ايكس لاشابيل Aix la Chapelle الذي انعقد سنة ١٨١٨م.<sup>(١)</sup>

سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه دول شمال أفريقيا:

اتسم النصف الثاني من القرن الثامن عشر بظهور الولايات المتحدة الأمريكية كدولة مستقلة واستقلالها عن بريطانيا سنة ١٧٨٣م جعلها تفقد الحماية التي كانت هذه الأخيرة تضمنها لتجارة مستعمراتها السابقة في أمريكا الشمالية، ولسفنها التجارية، ومن هذا الوضع الجديد للدولة الأمريكية نشأت سلسلة من الصعوبات كان عليها أن تواجهها بمفردها وأن تجد لها الحلول، ومن أهم تلك الصعوبات: تعرض التجارة الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط الى مضايقة خطيرة من قبل سفن غزاة البحر بشمال أفريقيا، وكانت تلك التجارة آنذاك تزداد أهميتها لسببين أساسيين: أولهما استقرار الوضع في أمريكا بعد الحرب الأهلية، وثانيهما ازدياد المنتوجات الأمريكية التي أصبح تراكمها يحتم إيجاد منافذ عديدة وأسواق جديدة. وأمام هذا الوضع رأت الولايات المتحدة الأمريكية أهمية القيام بمبادرات مع حكام شمال أفريقيا خاصة بعد أن لمست مباشرة مدى

---

1 - J. Mallon, I. Influence française dans la régence de Tunis avant L'établissement du Protectorat Paris. 1931. PP: 140 141.

الازعاج الذي يمكن لتلك الدول أن تحدّثه للسفن الأمريكية، فقامت بمبادرات لتحقيق أكثر ما يمكن من أمن لتجارتها البحرية النامية في المتوسط والحصول على امتيازات تجارية في تلك الدول.

تمتد سواحل الدول العربية في شمال أفريقيا المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس مسافة تقارب ٣٥٠٠ كيلومتر، وموقعها الجغرافي القريب من أوروبا مكنها أن تتمتع بمركز بحري وتجارى ممتازين، وكان موقع المغرب الأقصى هو الأهم لأنه مكنها من التحكم في مرور السفن عبر مضيق جبل طارق، وهذا واقع عمل به غزاة البحر في بلاد شمال أفريقيا.

سفن أولئك المجاهدين كانت تكوّن قوة خطيرة بالنسبة للأساطيل التجارية غير المحمية، ولم تكن للدول المغربية سفن تجارية الا بعض القوارب التي تحمل القمح، ولصغر حجمها لا تبتعد عن السواحل، وكانت السفن الفرنسية والايطالية واليونانية وغيرها هي التي تقوم بنقل مبادلات تلك الدول التجارية مع الخارج، لذا كانت سطوة أساطيل مجاهدي البحر المسلمين في البحار العربية مهابة جداً . . وفيما يتعلق بالمغرب الأقصى فإن أهميتها ترجع أساساً لا بالضرورة الى قوتها الحربية ولكن الى موقعها الاستراتيجي على المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط وهذا الوضع كان يزعج تجارة الولايات المتحدة الأمريكية في المحيط وفي المتوسط معاً لأن مضيق جبل طارق كانت تحت رحمة المغرب الأقصى، وبالإضافة الى هذا كانت التجارة مفيدة لأمريكا وتتجاوز أهمية المغرب بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية وتجارها في البحر المتوسط الى أمن تجارتها النامية في المحيط

نفسه، كما يؤكد تقرير من قنصل أمريكا بالجزائر الى كاتب الدولة للخارجية في العشرين من نيسان/أبريل ١٧٩٦م.<sup>(١)</sup>

كانت المبادلات التجارية في البحر الأبيض المتوسط هامة في القرن الثامن عشر، وكانت البلاد الشمال أفريقية تصدر خاصة الحبوب من قمح وشعير وحمص وغيرها وزيت الزيتون والصابون والصوف والجلود والخيول والمواشي والملح والفاكهة المجففة والعاج وريش النعام والشمع والسجاد. أما الواردات فكان أكثرها من الأقمشة والسكر والشاي والقهوة والبهارات والحديد والفخار وعتاد حربي مختلف<sup>(٢)</sup> وكانت معظم المبادلات تنقل على سفن أجنبية بامتيازات خاصة إما بواسطة شركات غربية أو بعقود فردية.

ويمكننا أن نبرز أهمية تجارة أمريكا في كامل البحر الأبيض المتوسط بحجم صادراتها هناك، وهي تمثل ( ٦/١ ) صادراتها من القمح والطحين و ( ٤/١ ) قيمة صادراتها من السمك المجفف وكميات كبيرة من الرز. وهذه الكميات من الصادرات الأمريكية كانت تشغل عدداً من السفن يتراوح بين ٨٠ و ١٠٠ في السنة، يشتغل فيها ٢,٠٠٠ بحار. وهو نشاط تجاري هام ومربح كما تؤكد وثائق البحرية الأمريكية.<sup>(٣)</sup>

---

1 Naval Documents Related to the United States Wars with the Barbary Powers Naval National Archives Washington Vol. 1. PP: 6, 23. 148.

2 - Greenhow, History. P. 10.

3 Naval Documents Vol. 1. P: 222.

وقد كان هذا الغزو بالنسبة لدول شمال أفريقيا يمثل مورداً تتجاوز أهميته أحياناً التجارة الخارجية، وهو الغزو البحري الذي يمكن أن يعتبر أحد الأسس المتينة لاقتصادياتها ولأنظمتها السياسية، غير أنها من ناحية أخرى تسبب في خلق عداوات وخلافات كثيرة مع الدول الأوروبية وأمريكا - كما سبق ورأينا - وأهمية موارد ذلك النشاط الجهادي لم تكن في البضائع أو السفن المستولى عليها، بل في الأسرى أيضاً الذين كانوا يسخرون في القيام بأعمال مختلفة أو كرهائن لا يطلقون إلا بمقابل مالي يقع الاتفاق بشأنه.

بالنسبة لغزاة البحر بشمال أفريقيا كان الأمريكان غربيين نصارى متسلطين كغيرهم من الأوربيين، لذا كانت معاملة غزاتهم للسفن الأمريكية لا تختلف في شيء عن معاملتهم للسفن الإسبانية أو البرتغالية أو الفرنسية أو الانجليزية، ولم تكن عقدت بعد أية معاهدات بين دول شمال أفريقيا والدولة الأمريكية الحديثة، فبدأ الأمريكان يجابهون خطر الغزو على تجارتهم وعلى رجالهم في المنطقة خاصة منذ سنة ١٧٩٣م عندما استولى الجزائريون على سفينتين أمريكيتين وأسروا واحداً وعشرين رجلاً.<sup>(١)</sup>

وكان على أمريكا أن تسلك الطريق نفسها كالدول الأوربية للحصول على أمن سفنها وعلى امتيازات تجارية في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس، وقد صعبت على أمريكا في بادئ الأمر المعاملات بهذا الشكل، لأن ما كانت الجزائر قد طلبته من إسبانيا

---

١ - المصدر نفسه. ص: ٢٣.

مقابل توقيع معاهدة سلم سنة ١٧٨٥م جعل حكومة واشنطن تياس من امضاء معاهدة سلام بينها وبين الجزائر، فقد دفعت اسبانيا للجزائر ما بين ١٧٨٥م و ١٧٩٠م أربعة ملايين ونصف من الدولارات، ولم تكف الجزائر بذلك المبلغ، بل أوجبت على اسبانيا شروطاً أخرى، منها دفع ستين ألف دولار للداي شخصياً، وبعث هدايا معتبرة مع قنصل جديد بقيمة اثنين وأربعين ألف دولار، وأن تعطي الجزائر ثلاث سفن مع حمولاتها وكذلك تقدم لوزراء الجزائر ثلاثين ألف دولار.<sup>(١)</sup>

في أول الأمر كانت سياسية أمريكا مترددة بين التفاوض والحرب فقد كتب المبعوث الأمريكي لشمال أفريقيا سنة ١٧٨٦ الى جون آدامن وزير الخارجية الأمريكي يقول: «إن الطريقتين الوحيدتين اللتين أمامنا لحماية تجارتنا من هؤلاء الأفريقيين هي المفاوضات والحرب، وإن تصلنا محاولة ترضية هذه الدول فإن ما سنتكبده سوف لن يقل عن ٦٠ ألف جنيه وهذا مبلغ باهظ جداً لكنه يعد أقل من تكاليف الحرب، وقد اعتادت الدول الأوربية أن ترسل رجالها للمفاوضات ومعهم بعض القطع البحرية حتى تظهر وكأنها مستعدة للحرب.<sup>(٢)</sup>

بعد ذلك التاريخ بأربع سنوات نجد السياسة الأمريكية تحاول

---

1 - Despatches from U.S. Consuls. American Archives of the Department of State, Algiers, July 1st 1802.

٢ - الشتيوي حرب القرصنة. الوثيقة رقم (١) ص ٩

المخادعة والمراوغة مع كل دولة شمال أفريقية على حدة، فبالنسبة للجزائر وردت مكاتبة من المبعوث الأمريكي الى رئيسه بمدريد بتاريخ ٢٥ يونيو ١٧٩٠م تقول: «إن الولايات المتحدة بلاد غنية بكل المعادن وأسعار منتوجاتها أرخص من أوروبا وصناعة السفن فيها صناعة دقيقة ولا تستطيع أي دولة أن تضاهيها فيها، ولم تعد الولايات المتحدة في يوم من الأيام على الجزائر ولم تبعث ضدها بالأساطيل بل إنها لم تترك فرصة تمر الآ وحاولت فيها التقرب من الجزائر لأن الأمريكيين يعترفون للجزائريين بالشجاعة والاقدام وإنها ستزود الجزائر بما تحتاجه لأسطولها من معدات»<sup>(١)</sup>.

لاشك وأن سياسة المهادنة مع تلك القوى البحرية الشمال أفريقية لم تجدها نفعاً فبدأت تتجه نحو استعمال العنف للوصول الى أهدافها، فقد بلغ عدد السجناء الأمريكيان في الجزائر فقط ٢٢٠٠ شخص سنة ١٧٨٦م، هذا الوضع جعل رجل الدولة الأمريكي توماس جيفرسون يقر أمام مجلس الأمة الأمريكي سنة ١٧٩٠م ذلك الاتجاه بقوله: وليس من شك بأنكم ترون أن الحل الذي أمامنا الآن هو استعمال القوة<sup>(٢)</sup> وشرعت في تنفيذ ذلك الاتجاه المتصلب حتى أن توماس جيفرسون نفسه أعلن في نفس السنة أن سلطان المغرب يتوقع أن نرسل له وفداً ونحن لا نعترف بهذه العادة من عادات العالم القديم<sup>(٣)</sup>.

- 
- ١ - المصدر نفسه ص ٢٤ - ٢٥ . الوثيقة رقم ١٩ .
  - ٢ - المصدر نفسه ص ٣٨ - ٣٩ . الوثيقة رقم ٢٤ .
  - ٣ - المصدر نفسه ص ٤٥ . الوثيقة رقم ٣٠ .

ثم أكد جيفرسون أن بلاده فقيرة صناعياً وبعيدة عن المغرب كل البعد، ولا يجب أن تتوانى في رفض أي شرط يمس كرامتنا لأننا نقع بعيداً عن العالم القديم ومناوراته. . وأخيراً لأننا مصممون على الدفاع عن كرامتنا ولو نخوض حرباً إن لم نجد بديلاً عنها ضد أي كان يسعى لفرض الهيبة والعطاء علينا. (١)

بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ نجد السفن الأمريكية التجارية أصبحت تنتقل في شكل مجموعات في البحار وقد وعدت اسبانيا بحماية سفن الولايات المتحدة الأمريكية بشرط أن تتجمع السفن الأمريكية في مجموعات حتى يسهل حمايتها كلما أرادت الإبحار. (٢)

بعد هذا التاريخ بدأ ممثلو أمريكا في شمال أفريقيا يلحون على وجوب انشاء أسطول أمريكي حربي قائم لحماية السفن والمصالح التجارية في البحر الأبيض المتوسط بالخصوص وبعث أوبراين مبعوث أمريكا بالجزائر الى حكومته يقول: ومن جديد أقول يجب أن يصل أسطولنا وسترون أنه سيفعل ما لا يفعله أسطول البرتغال وسيكفل سلام تجارتنا، وقد قررت لجنة مجلس الأمة الأمريكي ايفاد أربع سفن أمريكية كبيرة، كافية لحراسة تجارتها من الجزائر وتبلغ تكاليف هذه السفن ١٨٤٧ ألف دولار، تتجمع تكاليف انشائها من فرض رسوم جديدة على الواردات الأمريكية حتى تغطي النفقات المطلوبة. (٣)

---

١ - المصدر نفسه.

٢ - المصدر ذاته. ص: ٦١. الوثيقة رقم ٤٥

٣ - المصدر نفسه ص: ٨٠. الوثيقة رقم ٥٨.

حصل هذا الاتجاه المتصلب في السياسة الأمريكية وبرز بكل قوة على الرغم من أن أمريكا كانت أبرمت معاهدات صلح مع دول المغرب العربي، فقد تم الاتفاق على المعاهدة في مراكش سنة ١٧٨٦م ولم تكن تكاليفها بالنسبة لأمريكا عالية حيث كلفتها ما بين تسعة وعشرة آلاف دولار كما ورد في تقرير كاتب الدولة الأمريكي للتجارة في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٠م.<sup>(١)</sup>

أما المعاهدة نفسها فقد أعطت حماية للأسطول التجاري الأمريكي في البحر وفي عبوره مضيق جبل طارق، ووعدت مراكش أيضاً باستعمال نفوذها مع الجزائر وتونس وطرابلس لتسهيل توقيع معاهدات سلم بينها وبين أمريكا.

غير أن تلك المعاهدة لم تكن كافية وحدها لا لفتح البحر الأبيض المتوسط للتجارة الأمريكية، ولا لضمان استمرار علاقات الوفاق مع المغرب فقد توفي السلطان سيدي محمد بعد عقد المعاهدة واستوجب ذلك إعادة المفاوضات والدفعات المالية من جديد. . ورأت أمريكا أن لا أمن لتجارتها إلا بعقد صلح مع الجزائر التي احتجزت رجالها وسفینتین أمريكيتين، ورفض داي الجزائر التفاوض من أجل السلم مع أمريكا وبدون السلم مع الجزائر لا تفتح أبواب البحر المتوسط أمام تجارتها.

---

1 - Naval Documents, Vol. I. P: 23.

خاصة وأن الجزائر عام ١٧٩٠ كانت في سلم مع فرنسا وبريطانيا وهولندا والسويد والدنمارك وأخيراً مع اسبانياً، وبعد ابرامها معاهدة سلم مع البرتغال سنة ١٧٩٣م وجدت الجزائر أبواب المحيط الأطلسي مفتوحة أمامها للغزو، ومن النتائج المباشرة للمعاهدة مع البرتغال استيلاء الجزائر على السفينتين الأمريكيتين. وأظهرت التحريات الأمريكية أن السلم مع الجزائر سيكلف واشنطن حوالي مليون دولار، وكذلك كان طلب طرابلس مشطاً جداً كما لاحظ رجال الكونغرس، فكان عدم استعداد أمريكا المالي سبباً في اخفاق المفاوضات مع الجزائر وطرابلس.<sup>(١)</sup>

بعد سنة ١٧٩٠م أصبحت سياسة أمريكا نحو شمال أفريقيا أكثر صرامة فقد نادى الرئيس واشنطن بضرورة اخلاء سبيل السجناء الأمريكيين في الجزائر، ويشير خطاب رئيس الولايات المتحدة في ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ١٧٩٠م وكذلك قرار اللجنة المختصة بالنظر في المشاكل مع الجزائر، إنه من الضروري انشاء أسطول حربي أمريكي لحماية التجارة الأمريكية.<sup>(٢)</sup>

بمجرد أن أبرمت المعاهدة بين الجزائر والبرتغال سنة ١٧٩٣م - كما ذكر سابقاً - فتح المحيط الأطلسي أمام غزاة البحر الجزائريين، واعتبرت تلك المعاهدة مصيبة نزلت على التجارة البحرية الأمريكية في البحر المتوسط، وفعلاً ازداد عدد السفن الأمريكية المحجوزة من

---

١ - المصدر نفسه. الجزء الأول. ص. ٢٢ - ٢٥.

٢ - المصدر نفسه. الجزء الأول. ص: ٢٦ - ٢٧.

طرف الجزائر وبلغت احدى عشرة في مدة شهرين فقط، ووصل عدد الأسرى الى ١١٩<sup>(١)</sup>.

وثار الرأي العام الأمريكي ضد المعاهدة الجزائرية البرتغالية متهاً بريطانيا بأنها خططت لنجاحها قصد تدمير تجارة أمريكا الخارجية، وتحطيم اقتصادها، ولهذا السبب قويت فكرة تكوين أسطول حربي أمريكي لحماية المصالح الأمريكية والضغط على الجزائر وتونس وليبيا والمغرب الأقصى في المفاوضات، وقدم مشروع في شأن هذا الأسطول حصل على أغلبية النواب يوم ٢ كانون الثاني/يناير ١٧٩٤م وأصبح صالحاً للتنفيذ في ٢٧ آذار/مارس من السنة نفسها<sup>(٢)</sup> وأخذ الرئيس الأمريكي واشنطن المبادرات بنفسه لبناء ستة سفن حربية في مختلف الموانئ الأمريكية<sup>(٣)</sup>، غير أن المعاهدة مع الجزائر عقدت بعد مفاوضات شاقة وتعويضات ضخمة يوم ٥ أيلول/سبتمبر سنة ١٧٩٦ وأفرج عن الأسرى الأمريكيان.

1 - Despatches from U.S. Consuls, American Archives of the Department of State, Gibraltar. Vol. 3. 10 March. 1793.

2 - Naval Documents Vol. I. P: 67

٣ - هذه قائمة في أسماء السفن والمدن الأمريكية التي صنعتها:

عدد المدافع	اسم السفينة	المدينة
36	Congress	Portsmouth, New Hampshire
44	Constitution	Boston
44	President	New York
44	United States	Philadilphia
36	Constellation	Baltimore
44	Chesapeake	Norfolk or Virginia

المصدر السابق. ج ١. ص: ٩٠

أما المعاهدة نفسها فتحتوي على ٢٢ بنداً أهمها يخصص نشاط الغزاة، ونصت المعاهدة - فيما نصت - على أن المشاكل التي يمكنها أن تنشأ بين أفراد الجالية الأمريكية في الجزائر والجزائريين فإن الداي يتولى بنفسه البت فيها، وأما التي تنشأ بين الأمريكيين أنفسهم فإن النظر فيها من حق القنصل الأمريكي.<sup>(١)</sup>

كلف هذه المعاهدة أمريكا قرابة المليون دولار، وهذا الأمر شجع تونس وطرابلس على إجراء مفاوضات مع أمريكا، أما الدول الأوروبية فدخلها الهلع من تلك المعاهدة التي ستؤثر على معاملاتها مع دول شمال أفريقيا، وفي الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر تم الاتفاق على معاهدة أمريكية طرابلسية مقابل ١٢,٠٠٠ دولار وتتألف من ١٢ بنداً، وأغلبها متشابه مع بنود المعاهدتين المعقودتين مع كل الجزائر والمغرب، وصارت رسمية يوم ١٠ حزيران ١٧٩٧ . . . ومن الملاحظ هنا أن داي الجزائر ضمن استمرار العمل بها من طرف طرابلس، ووعده بتدخله في حالة نشوب خلافات بين الدولتين، بل وقع بختمه في أسفل المعاهدة، ومع تونس تمت في أول آب/أغسطس ١٧٩٧ مقابل ١٠٧,٠٠٠ دولار، وهو المبلغ الذي كان طلبه الباي من قبل.

تعطي بنود هذه المعاهدة حماية للتجارة البحرية الأمريكية من غزو رجال البحر في تونس، وينص البند الخامس أن السفن الأمريكية التجارية والحربية لا تفتش ولا تزعج في الموانئ التونسية، وإذا احتاجت أية سفينة أمريكية إلى تصليح فيسمح لها بانزال حمولتها

1 - Treaties and conventions 1776-1909 Washington 1910. P: 6.

ثم تعبثها دون أن تدفع أي ضريبة، وكذلك الحال بالنسبة للسفن التونسية في الموانئ الأمريكية، أما البند العاشر فيعطي حماية كاملة للسفن في حالة مهاجمتها من قبل عدو ولمدة ٤٨ ساعة بعد خروجها من الميناء.

أما بشأن البند الحادي عشر والثاني عشر والرابع عشر فقد عارضت أمريكا وجودها، ولكنها طبقت لمدة تزيد على الثلاث سنوات.<sup>(١)</sup>

بالنسبة لطرابلس فقد رفض باشا طرابلس تجديد المعاهدة فاستعملت أمريكا القوة ضده، وحاصرت سفينتان أمريكيتان طرابلس، ولكن احداها فقدت إثر تقدمها قرب الشواطئ الطرابلسية مع جميع ركابها، وفي تموز/يوليو ١٨٠٤ تجمع الأسطول الأمريكي كله أمام طرابلس وأطلق مدافعه عليها، فاستقر رأي قناصل أمريكا على حماية مصالحهم في المنطقة بالقوة العسكرية، وفي إحدى رسائله كتب ايتون لكاتب الدولة للخارجية في واشنطن مايلي:

(سأدعو الوزير يوسف صاحب الطابع وبعض المسئولين في تونس

ملاحظة

١ - اشترطت تونس في البند ١١ أن تدفع أمريكا برميلاً من المتفجرات على كل طلق مدفعي تطلقه حاميات الموانئ التونسية عند استقبال السفن الأمريكية، أما البند ١٢ فإنه سمح للباي باستعمال السفن التجارية الأمريكية في حالة احتياجاته لها على أن يدفع لها أجراً يقرره هو، أما البند ١٤ فقد فرض على أمريكا ضريبة قدرها ١٠٪ على البضائع الأمريكية القاصدة تونس و ٣٪ فقط على البضائع التونسية القاصدة أمريكا، خزينة الوثائق التونسية الوزارة الأولى . صندوق ٢٥٢ الملف ٦٨٥

لتناول العشاء على سفينة الكومودور، وسألت انتباههم الى تجهيزاتها الحربية ومدافعها وسأقول لهم انظروا هذه هي قوتنا الضاربة وبها نحمي مصالحنا ونحافظ على معاهداتنا، واذا رأيتم في هذا بعض العداوة فإنه الأسلوب الوحيد لحفظ السلم»<sup>(١)</sup>.

بعد هذا.. اتجه الأسطول الأمريكي قرب عاصمة الجزائر واستولى على سفينة جزائرية بعد معركة دامية قتل أثنائها قائدها وثلاثون من رجالها، وأخذ الأمريكان أكثر من ٤٠٠ أسير جزائري.. ثم اتجه الأسطول الأمريكي نحو ميناء المدينة وأظهر قائده استعدادة للتفاوض مع الداوي، وكان قد حضر مقترحات تكون فيما بعد معاهدة سلم جديدة، اقترح فيها الغاء المدفوعات المالية للداوي، والافراج عن جميع الأسرى الأمريكيين ودفع بعض تعويضات الحرب، والتأكيد على اعتبار الأسرى أسرى حرب.. ولكن الداوي أظهر تردداً في قبول تلك الشروط فزاد الأسطول الأمريكي في تهديداته ضد السفن الجزائرية في كل البحار واستمر سوء التفاهم قائماً الى أن دمرت حملة «ايكسماوث» البريطاني معظم أسطول الجزائر سنة ١٨١٨م وتم الاتفاق عندها على عدة أمور منها: اخلاء سبيل ١٠٠ أسير أوروبي وأمريكي، والموافقة على الغاء استرقاق المسيحيين في الجزائر، ثم انتقل أسطول ايكسماوث الى كل من تونس وطرابلس واجبرها على توقيع معاهدات مماثلة ووافق مجلس الشيوخ في واشنطن على المعاهدات في شباط ١٨٢٢.

---

1 - Naval Documents Vol. 1. P: 350.

بداية من سنة ١٨٣٠ سنة استيلاء فرنسا على الجزائر، نلاحظ في الوثائق الأمريكية اهتماماً بشئون فرنسا في شمال أفريقيا وخاصة في تونس، وقد درست واشنطن المعاهدة التونسية الفرنسية المبرمة سنة ١٨٣٠ بكل دقة، وهي المعاهدة التي التزم فيها الباي بالغاء استرقاق المسيحيين في تونس، واخلأ سبيل كل الأسرى الأوروبيين مع دفع تعويضات لهم، والغاء عادة الهدية القنصلية واعلان حرية التجارة للأجانب في تونس.

أما عن التجارة الأمريكية مع تونس بعد ١٨٣٠ فإنها لم تكن ذات أهمية كبيرة وفي قائمة للصادرات والواردات التونسية من نيسان - حزيران ١٨٤٣م لم يكن هناك ذكر لأي سفينة أمريكية دخلت أو خرجت من تونس<sup>(١)</sup>، وفي بيان آخر للصادرات والواردات الأمريكية من حلق الوادي لسنة ١٨٥٦ ذكر لثلاث سفن أمريكية فقط حملت على متنها جنوداً فرنسيين. وتوجد قائمة للسفن الأمريكية التي دخلت أو خرجت من ميناء حلق الوادي من تشرين الأول/أكتوبر ١٨٢٦ الى آذار/مارس ١٨٥٢م وكان عددها لا يتجاوز ١٢ سفينة أمريكية فقط<sup>(٢)</sup>.

ومن قائمة بتاريخ ١٨٥٥ يظهر بوضوح أن السفن التجارية الفرنسية في تلك السنة تفوق بعددها سفن أي دولة أخرى، بل انها

---

1 - American National Archives, Exportation, Tables showing the shipping trade of Tunis, 1843.

٢ - لمصدر السابق. السفن الأمريكية التي دخلت ميناء تونس. تموز ١٨٥٢م

كانت تفوق عدد السفن التونسية نفسها<sup>(١)</sup>.

ونستطيع أن نستنتج أن التجارة الفرنسية في سنة ١٨٥٥ كانت تفوق بكثير التجارة والمصالح الأمريكية في تونس، بل يذكر المهندس «هونجر» المقيم في تونس أن أعداء قنصل أمريكا في تونس كان عددهم في تزايد بسعي وتحريض من قنصل فرنسا.

ومنذ تولي محمد باي الحكم (١٨٥٥) استقرت العلاقات الودية بين قناصل الولايات المتحدة الأمريكية وحكام تونس ولكن نفوذ قنصل أمريكا كان ثانوياً إذا قورن بنفوذ قناصل كل من فرنسا وبريطانيا ثم ايطاليا في فترة لاحقة، واستمر ذلك الوضع يشابه في مظاهره العامة مركز قنصل أمريكا بطرابلس، الى انتصاب الحماية الفرنسية في تونس سنة ١٨٨١، أما بالنسبة للجزائر فقد تغير الوضع تماماً سنة ١٨٣٠ باحتلال فرنسا لها ومغادرة عدد من القناصل الأجانب بصفة نهائية، ومنهم قنصل أمريكا.

---

١ - المصدر السابق بيان السفن الأجنبية بميناء تونس ١٨٥٥ م.

